الدراسات البينية في القرآن والحديث، السنة ١، المجلد ١، العدد ٤، الربيع ٢٠٢٤ / ١٤٤٥، صص.٤٦١-٤٧٤

قراءة سيميائية للتناص القرآني في شعر المقاومة عند محمد حلمي الرّيشة

ناهيد پيشگام [*]، يحيى معروف [**]، تورج زيني‌وند [***]، مجيد محمدي [****]

* طالبة الدكتوراه، قسم اللغة العربية وآدابها، كلية الآداب، جامعة الرازي،كرمنشاه، إيران.

أوركيد: ٠٠٠ -٠٠٠٠ -١٤٥٨ -٨٧٧X pishgam.nahid84@gmail.com

** أستاذ اللغة العربية وآدابها بجامعة الرازي. (المؤلف المسؤول). أوركيد: ٠٠٠٠-٠٠٠٣-٤٧٢٩-٤٥٤٧ y.marof@yahoo.com

*** أستاذ اللغة العربية وآدابها بجامعة الرازي. أوركيد: ٠٠٠٠-٠٠٠٣-٠٧٠٥-٩٧٦١ t-zinivand56@yahoo.com

**** أستاذ مشارك في اللغة العربية وآدابها بجامعة الرازي. أوركيد: ٠٠٠١-٠٠٠٠-٨٢٤٣-٨٢٤٩ m.mohammadi@razi.ac.ir

الملخص

ظهر علم السيميائية كعلم حديث لمساعدة القارئ على استكشاف النصوص وفك رموزها والكشف عن المعاني الكامنة في طبقاتها العميقة. يُعد التناص أحد الرموز السيميائية التي يستخدمها الشعراء كعلامة ومظهر للتعبير عن أفكارهم ومدركاتهم في طبقات متعددة من الكلمات والهياكل النصية. لا تخلو دائرة مفردات الشاعر محمد حلمي الرّيشة (١٩٨٥ م)، الشاعر الرمزي للمقاومة الفلسطينية ، من الرّموز القرآنية، حيث زيّن بها شعره لتحدي ذهن المتلقي. تهدف هذه الدراسة، من خلال المنهج الوصفي-التحليلي وفي ضوء علم السيميائية، إلى فك رموز التناص القرآني في شعر الرّيشة وكشف المعنى الجذري الكامن وراء هذا الاقتباس من الآيات القرآنية. تشير نتائج هذه الدراسة إلى أن الشاعر استخدم آيات القرآن الكريم، سواء بشكل صريح أو ضمني، للتعبير عن مكوناته الشعرية. بالإضافة إلى ذلك، قام أحيانًا باقتباس متناقض للآيات والمفاهيم القرآنية لتحدي ذهن المتلقي ومضاعفة جهده الذهني لفهم المعنى المقصود. إضافة إلى ذلك، استخدم الشاعر الاقتباسات القرآنية لخلق معانٍ جديدة.

المفردات الرئيسية

السيميائية، محمد حلمي الرّيشة، الرمز التناصي، التناص القرآني

تاريخ الوصول: ٢٩ كانون الثاني ٢٠٢٤ | نوع المقالة: علمية محكمة | تاريخ القبول: ١٣ نيسان ٢٠٢٤

تاريخ المراجعة: ٢٨ شباط ٢٠٢٤

الناشر: جامعة الإمام الصادق عليه‌السلام

10.30497/ISQH.2024.246320.1036

© المؤلف (المؤلفون)

الإحالة: پيشگام، ناهيد، معروف، يحيى، زيني‌وند، تورج، محمدي، مجيد (٢٠٢٤)، قراءة سيميائية للتناص القرآني في شعر المقاومة عند محمد حلمي الرّيشة، الدراسات البينية في القرآن والحديث، ١(٤)، ٤٦١-٤٧٤،

https://doi.org/10.30497/ISQH.2024.246320.1036

١.المقدمة

السيميائية التي ظهرت في عصرنا الحاضر كعلم حديث في عالم المعرفة، تتناول العلامات والرموز التي تعمل كمحفّز لتوجيه العقل نحو المعنى الأصلي الذي قصده المؤلف. تقدّم السيميائية مساهمة كبيرة في مجال الأدب والشعر من خلال الكشف عن المعاني الثانوية للمفردات والتعابير والمصطلحات في شكل علامات ورموز.

السيميائية هي عملية إنتاج المعنى، حيث تخلق معانٍ جديدة من العلامات المستخدمة من قبل مؤلف أي عمل. لذلك، يمكن القول بأن «دراسة إنتاج المعنى هي مهمة السيميائية الخاصة ، والتي يمكن تعريفها ببساطة بأنها "علم المعنى المنتج". في الحقيقة، الهدف النهائي للسيميائية هو الكشف عن المعاني المضمنة في جميع إبداعات الإنسان، من الكلمات والرموز والروايات والسيمفونيات واللوحات والقصص المصورة إلى النظريات العلمية والأحكام الرياضية.» (غيرو، ٢٠٢٠: ١٦). وبالتالي، فإن السيميائية هي علم إنتاج المعنى الذي يعطي معنى للعلامات. تقوم السيميائية بتحليل الموضوعات في عدة مجالات، أحدها رمزية التناص: «التناص يقوم على فكرة أن النص ليس نظامًا مغلقًا ومستقلًا بذاته، بل له علاقة ثنائية ووثيقة مع النصوص الأخرى. قد تكون هذه النصوص أدبية أو غير أدبية، معاصرة للنص نفسه أو تنتمي إلى قرون سابقة.» (مكاريك، ٢٠١١: ٧٢). ومن بين أنواع التناص، يمكن الإشارة إلى النوع القرآني، حيث أن استخدام التناص القرآني في شعر محمد حلمي الريشة[١]، الشاعر المعاصر في مجال المقاومة الفلسطينية، أكثر تواترًا من الأنواع الأخرى. بما أن الرّيشة شاعر سياسي وقومي، فإنه يعبر عن العديد من أفكاره السياسية بشكل مستتر ومرمز، وأحد أنواع العلامات الأكثر شيوعًا في شعره هو التناص الذي يقيمه مع آيات القرآن الكريم، ومن خلاله يخلق في معاني قصائده أساسًا رمزيًا في تعبيراته.

نظرًا لأن الباحثين في الدراسة هذه يسعون إلى دراسة مدى اقتباس محمد حلمي الريشة وتأثره بآيات القرآن الكريم في التعبير عن أفكاره السياسية والقومية، فقد قاموا، من خلال المنهج الوصفي التحليلي، بفحص دواوين هذا الشاعر واستخلاص الموضوعات القرآنية منها؛ للوصول إلى إجابات لهذه الأسئلة: ١- كيف ربط محمد حلمي الريشة بين أفكاره السياسية وموضوعات آيات القرآن الكريم؟ ٢- إلى أي مدى نجح في الاقتباس من القرآن الكريم وإنشاء علاقة موضوعية بين أفكاره وآيات القرآن الكريم؟ ٣- ما مدى استخدام الشاعر لآيات القرآن الكريم بشكل تلميحي أو مباشر وصريح؟

أُجريت العديد من الدراسات حول السيميائية مع التركيز على التناص، ومن بينها مقالة «جماليات التناص القرآني في رواية "يا صاحبي السجن" لأيمن العتوم (مقاربة سيميائية لعتبة العنوان)» التي كتبتها شهيرة برباري وسعاد طويل (٢٠٢٢)، حيث قامتا بفحص التناص القرآني ومظاهر التناص القرآني في عناوين الرواية المذكورة كعلامات سيميائية مهمة تعكس وجهتي نظر الكاتب.

بالإضافة إلى ذلك، كتبت زهراء محققيان (٢٠١٤) مقالاً بعنوان «نشانه‌شناسی لايه‌ای آيات قرآن كريم با توجه به روابط درون متنی و بينامتنی» [سيميائية طبقات آيات القرآن الكريم مع مراعاة العلاقات الداخلية والنصية] ، حيث قدمت فيه مستويات وطبقات مختلفة من القرآن الكريم وكيفية استخراج هذه الطبقات في مجال علم السيميائية أو تقديم السيميائية الطبقية في الدراسات القرآنية.

ومن بين الأبحاث الأخرى التي أجريت في مجال التناص القرآني، يمكن ذكر مقالة «بينامتنی قرآنی و روايی در شعر مهيار ديلمی» [التناص القرآني والروائي في شعر مهيار الديلمي] لقاسم مختاري وفريبا هادي فرد (٢٠١٥)، حيث بحثا مدى تأثر مهيار الديلمي بالقرآن الكريم، وكذلك العلاقات التناصية بين أشعاره والقرآن الكريم وكلام النبي صلى الله عليه وآله وأئمة أهل البيت عليهم السلام.

أما الأعمال التي تناولت محمد حلمي الريشة، فتشمل مقالة بعنوان «الأديب محمد حلمي الريشة» لأبي‌صالح (٢٠١١) في فلسطين، قدّم فيها سيرة ذاتية وشخصية وأدبية وسياسية للشاعر، مع موجز عن أعماله.

كذلك، قام محمود حسين (٢٠٠٥) من جامعة القدس، في أطروحته «الظواهر الأسلوبية في ديواني الشاعر محمد حلمي الريشة»، بتحليل أنواع التناص والبنية التركيبية لأشعاره.

بالإضافة إلى ذلك، نشرت ناهيد بيشگام وزملاؤها (٢٠٢١) مقالة بعنوان «نشانه‌شناسی عنوان در شعر محمد حلمي الريشة: مطالعه موردی «*لاتعطني تفاحة أخرى*»،«*رسالة إلى كليم الله*» و«*أبابيل*»» [سيميائية العنوان في شعر محمد حلمي الريشة: دراسة حالة "لا تعطني تفاحة أخرى"، "رسالة إلى كليم الله"، و"أبابيل"]. تناولت هذه المقالة القراءة السيميائية لعناوين هذه القصائد الثلاث وعلاقتها بالنص، قامت بتحليل مدى تأثر الشاعر بالقرآن وأسباب ذلك في تسمية عناوين القصائد.

وفي سياق متصل، كتب الدكتور يحيى معروف وناهيد پيشگام (٢٠٢٠) مقالة أخرى بعنوان «نمادهای مقاومت در شعر محمّد حلمی الرّيشة» [رموز المقاومة في شعر محمد حلمي الريشة]،

حيث قاما بتحليل رموز المقاومة في شعر هذا الشاعر الفلسطيني باستخدام منهج وصفي-تحليلي، ودرسا مدى وكيفية استعارة الشاعر لرموز المقاومة.

نظراً إلى عدم وجود دراسات سابقة تحمل عنوان البحث الحالي "قراءة سيميائية للتناص القرآني في شعر المقاومة لمحمد حلمي الريشة"، يمكن اعتبار هذا البحث بمثابة مساهمة جديدة في التعريف بهذا الجانب من شعر محمد حلمي الريشة.

٢. الإطار النظري للبحث

٢-١- السيميائية (علم العلامات)

يُعزى ظهور علم العلامات كعلم حديث إلى مؤسسَيه الرئيسيين: سوسور وبيرس. على الرغم من أن سوسور وضع الأساس لهذا العلم، كما يشير تشاندلر إلى أن المصطلح يعود إلى مخطوطة سوسور عام ١٨٩٤ (تشاندلر، ٢٠٢١: ٣٤١)، إلا أنه يمكن القول إن علم العلامات «تطوَّرَ إلى مجال مستقل بفضل نظريات وأفكار بيرس، وأصبح مجالًا متعدد التخصصات لدراسة الظواهر». (غيرو، ٢٠٢٠: ١٤٥).

يُعرّف أومبرتو إيكو السيميائية بأنه «يهتم بكل ما يمكن اعتباره علامة» (إيكو، ١٩٧٦: ٧). في تحليله للعلامات، أكد فرديناند دي سوسور على العلاقة بين الدال والمدلول، و«يعتبر العلامة اللغوية بنية تتكون من دال (صورة صوتية) ومدلول (مفهوم متصور)، ويطلق على العلاقة بينهما اسم الدلالة». (سوسور، ٢٠١٣: ١٧٠).

٢-٢- الرمزية المرتبطة بالتناص الشعري

يعتبر التناص من النظريات الحديثة في عالم النقد المعاصر، حيث يدرس العلاقة بين النصوص. «تشكلت هذه النظرية في أواخر الستينيات من القرن العشرين، بين عامي ١٩٦٥ و١٩٦٧، من خلال دراسات جوليا كريستيفا، اللغوية البلغارية، في أعمال باختين». (حسيني وآخرون، ٢٠٢٠: ١١٢).

التناص هو العلاقة التي تربط بين النصوص، حيث يسعى كل مبدع إلى بناء المعنى من خلال الأعمال المرتبطة بالمفهوم المقصود. وفي النهاية، القارئ هو من يدرك المعنى من خلال قراءته للنص، وهو ما أشار إليه «آلن» بقوله: «إنّ أهم موضوع في التناص هو عملية استخلاص المعنى من النصوص من قبل القارئ، والتي تسمى التأويل أو القراءة» (آلن، ٢٠٠٦: ١١). يؤكد المغربي أيضًا في كتابه على أهمية فهم القارئ للمعنى، مشيرًا إلى أن الغذامي، مثل بارت، يعتبر النص كائنًا

حيًا، ويُوليه أهمية من منظور نفسي، لأنه يرى أنّ النص هو عملية نفسية وجمالية يتم فهم معناها من قبل القارئ (المغربي، ٢٠١٠: ٧٣).

وتجدر الإشارة إلى أن «موضوع التناص لايقتصر على مسألة تأثير أديب على آخر، بل هو غني جدًا ويتناول مستوى اللغة والعلامة» (مقدادي، ١٩٩٩: ١١٦). يستخدم الكاتب والأديب هذه العلامة اللغوية كرمز بسبب وجود تشابه، ويقوم بترميز كلامه من خلالها. وقد استخدم محمد حلمي الريشة هذه العلامة اللغوية لترميز معانيه الذهنية، ومنح هذه العلامات معنى ثانويًا.

قد ذكر البعض تقسيمات للتناص، وأشاروا إلى التناص الصريح وغير الصريح والضمني: «التناص الصريح يعبر عن تواجد نص في نص آخر بشكل واضح. بعبارة أوضح، في هذا النوع من التناص، لاينوي مؤلف النص الثاني إخفاء مرجع نصه، أي النص الأول. لذلك، يمكن بطريقة ما رؤية وجود نص آخر فيه. التناص غير الصريح يعبّر عن تواجد خفي لنص في نص آخر. وهذا الإخفاء ليس بسبب ضرورة أدبية، بل لأسباب خارجة عن الأدب. وعلى هذا فيعتبر الانتحال الأدبي والفني من أهم أنواع التناص غير الصريح. في بعض الأحيان، لاينوي مؤلف النص الثاني إخفاء تناصّه، ولذلك يستخدم علامات يمكن من خلالها تحديد التناص وحتى التعرف على مرجعه. ولكن هذا الفعل لايتم بشكل صريح أبدًا، وغالبًا لأسباب أدبية، يكتفي بالتلميحات الضمنية». (نامور مطلق، ٢٠٠٧: ٨٨-٨٩).

في تصنيف آخر لأنواع العلاقات التناصية، يقدم «تودوروف» نوعًا منها يسمّى بالعلاقة التناصّية التزامنية والتاريخية، حيث ينقل شاهرخي وزملاؤه عنه في مقالتهم أن العلاقة التناصية بين الأنواع تعتمد على نوعين من العلاقات التناصية: التزامنية والتاريخية. في العلاقة التناصية التاريخية، تقوم الأنواع الخاصة باستخدام أنواعٍ من الماضي والسابق، وتعتبر مصادر مهمة جدًا للأنواع في الزمن الحالي. بينما في العلاقة التناصية التزامنية، تتأثر النصوص بنصوص عصرها. (شاهرخي وآخرون، ٢٠١٨: ٢٠٧).

استخدم الشعراء تداخل النصوص المتنوعة، مثل استخدام الأساطير والشخصيات البارزة وأقوال الحكماء، لإثراء أعمالهم. يعد القرآن مصدرًا غنيًا بالمعاني العميقة والحكيمة ينتمي إلى جميع العصور والأزمنة، ولا تعرف معانيه القدم أو الزوال، ويمكن استنتاج معانٍ مناسبة لكل عصر من معانيه. فنظرًا لعمق معانيه والطبقات المتعددة من معاني الكلمات والهياكل والتركيبات ذات المعاني اللامتناهية، يعتبر القرآن مصدرًا غنيًا من منظور السيميائية، حيث يكشف كل

طبقة من المعنى عن إمكانية وجود معانٍ لا حصر لها أخرى في داخله، والتي تتغير وفقًا للمنظور الفكري للشاعر، ويمكن للشاعر استخدامها وفقًا لنوع المعنى الذي يقصده.

الشعراء، وخاصة محمد حلمي الريشة، الذي يعد شاعرًا رمزيًا ونشطًا في استخدام الرموز الشعرية، قد استعاروا من ألفاظ ومعاني القرآن لإثراء أعمالهم. في بعض الأحيان، يستخدم الريشة إشارات صريحة، وفي أحيان أخرى يستخدم إشارات ضمنية إلى آيات القرآن، وأحيانا يستخدم معاني القرآن بطريقة متناقضة لتحقيق إبداعه شعري.

٣- التحليل الموضوعي

محمد حلمي الريشة شاعر وطني ومناضل جعل آلام أبناء وطنه في صميم أشعاره، واتخذ من التغني بوطنه رسالة له. وقد لجأ إلى **الرموز** لأداء رسالته الشعرية، ، واختار من بينها أبرزها، وهو كلام الله، كمصدر موثوق به، ليستطيع من خلال معانيه الغنية تحقيق رسالته.

٣-١- الاقتباس الصريح من الآيات

أقام الريشة في بعض قصائده علاقة تناص صريحة مع آيات القرآن. وبالتالي، تشير بعض الاستعارات في شعره إلى تواجد واضح لآيات القرآن:

«سَنَخرُجُ مِن حَوضِكُم فِي هُدُوءٍ
فَلَا تَغسِلُونا
وَلَاتَستُرُونَا
سَنَغسِلُ مِن بَحرِنَا مَا اتَّسَخنَاهُ مِنكُم
وَنَغزِلُ مِن قُطنِنَا السَّاتِرَات
تَمَاثِيلُ أَنتُم
كَأَشبَاهِ (عُزَّى) وَأَشكَالِ (لَات)». (الرّيشة،٢٠١٦: ١/ ٢٠١).

كلمتا "اللات والعزى" كلمتان مألوفتان، وعند رؤيتهما يتجه ذهن المتلقي إلى الآية ١٩ من سورة النجم[١]. هذان هما صنمان كان المشركون يعبدونهما، لذلك استخدم الشاعر هذا التناص كعلامة، لأنهما عنصران يمتلك المتلقي خلفية ذهنية عنهما، وبالتالي يتم استقبال المعنى في ضوئهما. «تصبح عناصر النص وحدة دلالية في ضوء هذه العلاقات التناصية. وبعبارة أخرى، عند قراءة النص، نفهم معناه من خلال الرموز الموجودة في النص السابق. لذلك، النص له معنى

[١]. أَفَرَأَيتم اللّات و العُزّى (النجم: ١٩).

فقط في ظل التناص، وإلا فإن معناه غير مفهوم». (أحمدي، ٢٠١٠: ٣٢٦-٣٢٧). ومن ثم، سعى الشاعر من خلال استدعاء هذين الصنمين، في ضوء محور الاستبدال، إلى تقديمهما كرمز ونموذج لعبادة الأصنام في العصر الحالي للعرب، ولكن في شكل عبادة الملوك والملكات، لإظهار جانب آخر من هذا الشرك في المجتمع العربي وقادته العرب، الذين انحنوا واستسلموا أمام الظالمين والمستبدين مثل إسرائيل. ولكنه مع هذا القول بأنكم مجرد تماثيل مثل اللات والعزى، اللذَين سقطا وتحطّما في النهاية، سوف تهزمون أنتم أيضًا، على الرغم من عبادتكم - خاصة من قبل بعض الملوك العرب - وسيتم تطهير كل أرض فلسطين من البحر والبر من وجودهم.

«لَا بَابَ إِلَّا مَا تَقُولُ؟ كَأَنَّهُ الصَّوتُ الّذِي
فِي حَفلَةِ الأَنشَادِ مَبتُورُالوَتَر؛
هِيَ حَفلَةٌ لِلرَّقصِ فَوقَ الأَضرِحَة
صُمٌّ، وَبُكمٌ، ثُمَّ عُميٌ فِي حَوَافِي الأَسطِحَة
وَالهَاوِيَة؛
بَحرٌ مِنَ الظُّلُمَاتِ...». *(الرّيشة، ٢٠١٦: ١/ ٤١٥-٤١٤)*

يشكو الشاعر من عزلة وطنه، ويعبر عن خيبة أمله من إخوانه العرب بكلمات مؤثرة. يستعير كلمات ومفاهيم قرآنية، ويستخدم لغة صريحة ومباشرة: (صُمٌّ، وَبُكمٌ، ثُمَّ عُميٌ)، في إشارة إلى الآية القرآنية «صُمٌّ بُكمٌ عميٌ فهم لايرجعون» (البقرة: ١٨) مشيرًا إلى صمت القادة العرب العميق. يصفهم بأنهم مثال كامل لهذه الصفات القرآنية الصريحة. وقد أشار «محمود حسين» أيضًا في تحليله لهذا الجزء من كلام الشاعر إلى أنّه «يئس الشاعر من كثرة الكلام في الغرف المغلقة... فها هو، يصف أولئك الذين يجلسون خلف الأبواب بالصمّ البكم العمي، فهم لايعون ما يقولون ولا ما يُقال لهم. إنّهم كما وصف تعالى في سورة البقرة: {صُمٌّ بُكمٌ عميٌ فهم لابرجعون}. نرى الشّاعرَ يُلمحُ إلى إخوته الذين لطالما جلسوا يُناقشون أمره. لكنّهم يخطبون، و يشعلون المنابر ناراً ولايحرّكون ساكناً . فمثلهم كمن وصفهم تعالى في سورة البقرة. يؤكّد الشاعر بأنّ الصوت الوحيد الذي سيُسمع هو صوت الفلسطيني، فلا أحد يشعر بمعاناتك إلّاك. ولن تجد نصيراً من هؤلاء الذين يهذون كلاماً لايقومون بتطبيق حروفهِ. فهم جملٌ إضافيٌّ وُضِعَ على كاهلك.». (محمود حسين، ٢٠١٥: ٥٧).

«أَقُولُ: النِّهَايَاتُ مُفتَتَحٌ لِلرُّجُومِ الكَبِيرِ،
وَإِنَّ البِدَايَاتِ سُقنَ البَيَارِقَ بَيضَاءَ مِن غَيرِسُوءٍ». (الرّيشة، ٢٠١٦: ١/ ٤٣٠)

عند قراءة هذا الجزء من أبيات المقاومة لحلمي الريشة، ومشاهدة تركيب «بَيْضَاءَ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ»، يتبادر إلى ذهن المتلقي النص القرآني الصريح وقصة النبي موسى عليه السلام، ويدرك أن الشاعر كان له هدف من هذا الاختيار، وأنه لا شك في وجود علاقة ورابط دلالي مشترك بينهما. سعى الشاعر من خلال هذا المنظور إلى النص القرآني الصريح إلى الإشارة إلى أن الفلسطينيين لن يتراجعوا أبدًا عن موقفهم في طرد إسرائيل من أرضهم، ولم تتلوث أيديهم بخيانة أو تراجع أو تعب من النضال، وأنهم ما زالوا صامدين على طردهم، وأيديهم نقية من أي عيب أو عار من التسوية أو المصالحة مع العدو، ولن تمتد أيديهم إلى العدو للمصالحة، بل فقط لرمي الحجارة.

«كَانَتْ لِفَاطِمَةَ الْقَصِيدَةُ كُلُّهَا
حَتَّى أَتَاهَا السَّبْيُ تَحْتَ شُجَيْرَةِ النَّعْنَاعِ، إِذْ
خَضَعَتْ لِأَفَّاكٍ أَثِيمْ.» *(المصدر نفسه، ٢٠١٦: ٥١٤)*

من المعتاد أن يرمز حلمي الريشة بالمرأة بأي عنوان أو إشارة، إلى الأرض والوطن. في هذه الأبيات، يمثل اسم «فاطمة»، المشتق من اسم أنثوي، رمزًا لفلسطين، ويدّعي أن جميع قصائده تصف حالة وطنه، ويصف الاحتلال من قبل النظام الغاصب بأنه «سبي فاطمة». وقد أقام تناصًا مع آيات القرآن للتعبير عن وحشية الصهاينة.

يتجلى تأثير آيات القرآن الملهم في شعر هذا الشاعر الفلسطيني في هذه الأبيات أيضًا. عندما يتحدّث بغضب واشمئزاز عن احتلال أرضه من قبل الغاصبين الظالمين الكاذبين، يلجأ إلى أوصاف الآيات القرآنية لوصف مدى وحشيتهم وإجرامهم ووعودهم الكاذبة الفارغة، ويصف هذا المحتل الغاصب بأنه «أَفَّاك أَثِيم»، وهو تعبير قرآني مأخوذ من النص الصريح للقرآن " وَيْلٌ لِكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ»(الجاثية: ٧). من خلال هذا الاقتباس والتناص القرآني، يؤكد الشاعر أن هؤلاء المجرمين هم كَذّابو التاريخ الذين استولوا على أرض فلسطين واحتلّوها بمختلف أنواع الجرائم والوعود الكاذبة للفلسطينيين.

٣-٢- الاقتباس الضمني من الآيات

قد يقوم الشاعر والكاتب بمزج معنى معيّن من الآية أو المفردات القرآنية مع شعره بطريقة غير مباشرة وضمنية، ويُضفي على كلامه وزناً من خلال هذا التناص:

«عَادَ بِالطُّوفانِ نُوحٌ
كَي يُعيدَ، الآنَ، أَبعَادَ الشِّرَاعِ..». *(المصدر نفسه، ١/ ٧٧)*

ظلم قوم نوح عليه السلام أنفسهم وكفروا، ولم تؤثر فيهم نصائح نوح عليه السلام، فوقع عليهم عذاب الله بالطوفان، وطهرت الأرض من الكفر. والآن، يتمنّى الشاعر، بكلام صريح ومن خلال تناص تاريخي، باستحضار قصة نوح وقومه، حدوث تغيير وتحول في أوضاع أرضه وشعبه، ويتطلب هذا التغيير طوفانًا يشبه طوفان نوح عليه السلام. لكن المقصود بالطوفان عند الشاعر هو تغيير جذري في الفكر والعقلية. يرى الشاعر أنّ طوفان نوح عليه السلام هو علامة على ثورة في فكر الناس، وباستخدام مبدأ الاستبدال، واختياره من بين العلامات والتعابير الأخرى، يدعو إلى تغيير جذري في أساس تفكير شعبه، ويرى أن الطريق الرئيسي للخلاص يكمن في هذا التحول والتغيير.

«لَا تُعطِني تُفَاحَةً أُخرَى لِتُخرِجَني
لِلمَلجَأِ العَرَبِيّ، لَيسَ لَهُ جِدَارٌ أَو غِطَاء
فَالبَرُّ مُنتَهَكٌ
وَالبَحرُ مُنتَهَكٌ
وَالجَوُّ مُنتَهَكٌ
وَالوَحلُ مُنتَهَكٌ
وَالقَبرُ لِلأَسماء.
...لَا تُعطِني تُفَّاحَةً أُخرَى فَتَلبَسُني الخَطِيئَةُ مَرَّتَين
إبليسُ في المَيدَانِ يَرقُبُ طَلعَتي مِن نَجمَتَين
تَفَتَّحُ الأخطاءُ حَولَهُمَا وَيَرسُمُ في عُيُوني شَارِعين». *(المصدر نفسه، ١١٢-١١٤).*

في هذه الأبيات، يقيم الشاعر علاقة تناصية ضمنية مع قصة آدم وحواء القرآنية، حيث يربط بشكل ضمني بين إغواء الشيطان وإسرائيل، ويستخدم هذه القصة للتعبير عن فكرته السياسية وتصوير الطبيعة الشيطانية للإسرائيليين. من خلال وصف «التفاحة» بأنها «أخرى»، يكرّر الشاعر الإغراءات المخادعة للشيطان في صورة أخرى، حيث تحاول إسرائيل إغواء الفلسطينيين بوعود كاذبة لسرقة أرضهم، ويصور إسرائيل في صورة الشيطان. وبالتالي، يصف الشاعر الصهيونية الماكرة بأنها إبليس، كرمز للإغواء.

٣-٣- الاقتباس المتناقض من الآيات

يستدعي الريشة في الأبيات التالية، من خلال ذكر كلمات معينة، قصة قرآنية في ذهن المتلقي، وبناءً على معرفة المتلقي المسبقة بالقصة، يتوقّع معنى إيجابيًا للتعبير القرآني المستعار. ومع ذلك،

عند القراءة في محور التجاور، نواجه تناقضًا ومعنى سلبيًا، حيث يستخدم الشاعر معنى معاكسًا للمعنى القرآني:

«أَفتَرِشُ الأَنواءَ حَديثاً يُتلَى
مِن قَلبِ النَّارِ
الطُّوفَانِ، وَسِيرَةِ وَطَني
فَلأَجسَادُ سَتَبلَى، لكِن
سَتَعُودُ لِأَنَّ الرَّملَ البُنِّيَّ يُحَوصِلُهَا بِذرَة؛
لَتُكَرِّرَ أَفرَاحَ اللَّونِ الأَخضَرِ
في الذَّاتِ الحَيَّةِ.». (الرّيشة، ٢٠١٦: ١/ ٣٢)

في هذه الأبيات، يستخدم الريشة مصطلح «مِنْ قَلْبِ النَّارِ» ليوجّه القارئ نحو قصة النبي إبراهيم عليه السلام، الذي أُلقي في النار بأمر نمرود، لكنه نجا بأمر الله وتحوّلت النار إلى برد وسلام عليه. ومع ذلك، في بنية مثل «الأَجْسَادُ سَتَبلَى»، يعتبر الريشة هذه النار سببًا لتدمير أجساد الفلسطينيين، ويستخدم هذه النار بطريقة معاكسة. لكن بكلمة «سَتَعُودُ»، يَعِد بالعودة للاحتفال بالنصر.

«فَاحمِل عَصَاكَ فإنَّني أَنَا مَن عَصَاك
تَبَّت يَدَاك». *(المصدر نفسه، ١/ ١٦٤)*

في هذا الجزء من الأبيات، يستخدم الشاعر علامتين تستدعيان آيات القرآن في ذهن المتلقّي. يستحضر التركيب «فَاحْمِلْ عَصَاكَ» ذلك الجزء من قصة النبي موسى عليه السلام في القرآن حيث يقول الله لموسى: «أَلقِ عَصَاكَ»(الأعراف :١١٧) ؛ لكن الشاعر يغيّر المعنى بشكل جذري، ويأخذ معنى معاكسًا للآية، في تناقض وتعارض مع المعنى المستخدم في الآية. في القرآن، يخاطب الله موسى بمعنى إيجابي، بينما هنا يستخدم الشاعر العكس، ويخاطب المحتلّين بتعبير لاذع بأن لا أحد هنا لمساعدتك وعليك أن ترحل. ويربط ذلك بالجزء الأخير «تَبَّتْ يَدَاكَ»(المسد: ١)، وهو استنتاج مباشر من كلام الله ويوجّهه إلى المحتلين، وهو تفسير مباشر لمعنى الآية، وبهذا اللعن (تبت يداك)، يعبّر عن نهاية المحتل الغاصب بالهلاك والدمار.

«لَاتَدخُلُوا فِي السَّلمِ مِثلَ إِوَزَّةٍ
فَقَدَت جَنَاحَيهَا عَلَى فَقدِ العِظَام
لَاتَسقُطُوا أَدنَى مِنَ الكَلِمَاتِ فِي وَحلِ الكَلَام
لَا تَدخُلُوا..
لَا تَسقُطُوا..

لَا تَقرَعُوا بَابَ السَّلَام». *(المصدر نفسه ، ١/ ٢٨٠)*

كما يتضح، استخدم الشاعر في كلامه كلمات قرآنية وأقام تناصًا بين كلمتي «السلم والجناح» والمفردات القرآنية[١]. ومع ذلك، فإن هذا التناص موجود فقط في ألفاظ القرآن، ولكنه يتعارض مع معنى النص القرآني. يدعو القرآن إلى السلام والصلح مع أولئك الذين يرغبون في الصلح والسلام، بينما يعارض الشاعر الاستسلام للسلام والمصالحة حتى لو أراد العدو ذلك، لأنه لايثق حتى في صداقتهم وسلامهم، ويطلب من المقاتلين عدم التسوية معهم، ويظهر معارضته من خلال تكرار فعل النهي «لا تدخلوا... / لاتسقطوا / لاتقرعوا»، مما يدلّ على تأكيده الشديد.

«ثِقَلٌ هِي الرِّيحُ الَّتِي ليسَتْ لَواقِحَ كَي نَرَى
مَا لَا يُرَى
فِي الْخَطْوِ فِي عُشْبِ الْهُبُوطْ». *(المصدر نفسه ، ٢/ ٥٠٠)*

في هذا الجزء من كلامه، يقيم الشاعر تناصًا مع آية قرآنية من خلال استخدام تعبير «الرِّيحُ الَّتِي لَيْسَتْ لَوَاقِحَ». عند رؤية هذه الكلمات، يتبادر إلى ذهن القارئ الآية ٢٢ من سورة الحجر: «وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ». ومع ذلك، فإن التناقض الذي أوجده الشاعر في هذا الاقتباس من الآية يثير دهشة القارئ. يصف الله تعالى في هذه الآية الرياح بأنها عامل بركة ونفع للأرض، حيث تسبّب اخضرارها ونموها، لكن الشاعر يصف الرياح التي تهبّ على أرض فلسطين بأنها رياح ثقيلة ولكنها غير مباركة ولا تحمل أي خير أو منفعة لأرضه. لذلك، هذه الكلمات هي كلمات رمزية تحمل معنى كامنًا يشير إلى الوضع السياسي المضطرب في البلاد، حيث لايوجد أي خبر عن تغيير في الظروف، وتعكس يأس الشاعر.

في الدراسات التي أجريت على قصائد الشاعر الفلسطيني محمد حلمي الريشة، اتضح أن كل شاعر يستخدم آيات القرآن للتعبير عن أفكاره الذهنية، ومن خلالها ينجح في نقل معناه المقصود. في بعض الأحيان، يتخذ الشاعر في استخدام هذه العلاقات التناصية منحى إبداعيًا ويعمل في اتجاه معاكس للمعنى والمفهوم الأصلي. بمعنى أنه في خلق المعنى، يقوم أحيانًا بإنتاج معنى يتناقض مع ما هو وارد في نص القرآن، وهو ما يعتبر نوعًا من الإبداع وتحديًا للمتلقي يواجه العقل بمفاجأة. ذلك لأن العقل، عند رؤية النص، يسعى إلى إيجاد تشابه، وفجأة، عند وضعه بجانب معنى مختلف يتعارض مع المعنى الذهني الأصلي، يفاجئ المتلقي. يظهر في شعر الشاعر هذا النوع من المفاجأة في عكس معنى مختلف ويتناقض مع النص الأصلي. يسعى الريشة إلى الاستفادة من النصوص الدينية والقرآنية والأحاديث،

[١] «وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ»: (الأنفال: ٨).

ويستخدمها كرمز وعلامة للتعبير عن مفاهيمه الذهنية. ولذلك، في بعض الأحيان يستعير كلمات قرآنية صراحة من القرآن، وفي أحيان أخرى يستخدم تعبيرات وتركيبات قرآنية، وفي أحيان أخرى يكتفي بمضمونها، معتمدًا على معلومات القارئ القرآنية، ويبني عليها مفاهيمه.

٤- النتائج

- يعتبر التناص أحد أهم مكونات مجال السيميائية، والذي كان له حضور قوي في أعمال الشعراء منذ القدم وحتى الآن. يستخدم الشعراء، وخاصة شعراء السياسة والمقاومة، التناص كغطاء ورمز للتعبير عن خلاصة أفكارهم، ومن خلاله يعبرون عن مشاعرهم بحرية. وبما أن القرآن مصدر غني بالمعاني والتعابير، ولا يزال يحتفظ بمكانته المرموقة في مجال البلاغة والفصاحة والمعاني العميقة والغنية على مر القرون، ولا يعرف القدم طريقه إلى ألفاظه وتعابيره، وتكشف كل معاني ألفاظه عن معانٍ جديدة، يلجأ إليه الشعراء كمصدر غني ويصبون فيه ما لم يقولوه في قالب من المعاني الخفية للتركيبات والكلمات القرآنية، بحيث يواجه القارئ تحديًا في فك رموزها، وفي ضوء محوري الاستبدال والتجاور يستخدم علم السيميائية لتحليلها بدقة.

- في الدراسات التي أجريت على أبيات الشاعر الفلسطيني محمد حلمي الريشة، اتضح أن الشاعر استخدم آيات القرآن للتعبير عن أفكاره الذهنية، بالاعتماد على مبدأي الاختيار والتركيب، ومن خلالها نجح في نقل معناه المقصود. استخدم محمد حلمي الريشة من خلال علاقات التناص، إشارات صريحة أحيانًا وضمنية أحيانًا أخرى، ووظف علامات ورموزًا في ترتيب وتركيب خاص بجانب كلمات وتعبيرات أخرى، ليخلق معنى جديدًا. في بعض الأحيان، يتخذ الشاعر في استخدام هذه العلاقات التناصية القرآنية منحى إبداعيًا ويعمل في اتجاه معاكس للمعنى والمفهوم الأصلي، بمعنى أنه في خلق المعنى، يقوم أحيانًا بإنتاج معنى يتناقض مع ما هو وارد في نص القرآن، وهو ما يعتبر نوعًا من الإبداع وتحديًا للمتلقي يواجه العقل بمفاجأة. ذلك لأن العقل، عند رؤية النص، يسعى إلى إيجاد تشابه، وفجأة، عند وضعه بجانب معنى مختلف يتعارض مع المعنى الذهني الأصلي، يفاجئ المتلقي. يظهر في شعر محمد حلمي الريشة هذا النوع من المفاجأة في عكس معنى مختلف ويتناقض مع النص الأصلي. يسعى الشاعر إلى الاستفادة من النصوص الدينية والقرآنية والأحاديث، من خلال الرجوع إلى معتقداته الخاصة، لنقل مفاهيمه المقصودة.

- بالنظر إلى التقسيمات المذكورة حول التناص التزامني والتاريخي، يمكن القول إنه نظرًا لأن نزول القرآن من حيث النص قد حدث منذ قرون، فإن استخدام الشاعر للتناص مع القرآن يعتبر تناصًا تاريخيًا، ولا يمكن القول بأنه استخدم تناصًا تزامنيًا.

- بالإضافة إلى ذلك، كان استخدام حلمي الريشة للألفاظ القرآنية الصريحة أكثر تواترًا من استخدامه للمعاني الضمنية وغير المباشرة. وقد اتجه هذا الاستخدام المباشر لألفاظ القرآن أحيانًا نحو المعنى القرآني الأصلي، وأحيانًا أخرى نحو معنى متناقض، وهو ما يمثل في حد ذاته نوعًا من الإبداع في خلق المعنى.

الهوامش

١- محمد حلمي الريشة (١٩٥٨)، من مواليد نابلس في فلسطين، ويعتبر من الشعراء الرمزيين الذين يتميزون بتعقيد رموز كلامهم. له العديد من الأعمال في مجال الشعر والترجمة، ومن أهم أعماله الشعرية التي تحمل مضامين وطنية وسياسية: الخيل والأنثى (١٩٨٠)، حالات في اتساع الروح (١٩٩٢)، الوميض الأخير بعد التقاط الصورة (١٩٩٤)، أنت وأنا والأبيض السيء الذكر (١٩٩٥)، لظلالها الأشجار ترفع شمسها (١٩٩٦)، ثلاثية القلق (١٩٨٦). وقد جمع الشاعر دواوينه الشعرية تحت عنوان «الأعمال الشعرية» في ثلاثة مجلدات (انظر: محمود حسين، ٢٠١٥: ١٥ وأبوصالح، ٢٠١١: ٢٨٩-٣١١).

المصادر

القرآن الكريم

أحمدي، بابك (٢٠١٠)، **البنية وتأويل النص**، الطبعة الثانية عشرة، طهران: منشورات المركز.

آلن، غراهام (٢٠٠٦)، **التناص**، ترجمة بيام يزدانجو، طهران: منشورات المركز.

تشاندلر، دانيال (٢٠٢١)، **مباني علم العلامات**، ترجمة مهدي بارسا، تحت إشراف فرزان سجودي، الطبعة السابعة، طهران: منشورات سورة مهر.

الريشة، محمد حلمي (٢٠١٦)، **الأعمال الشعرية** (المجلد الأول والثاني)، دار أبابيل.

سوسور، فرديناند دي (٢٠١٣)، **دورة في علم اللغة العام**، ترجمة كورش صفوي، الطبعة الرابعة طهران: منشورات هرمس.

غيرو، بيير (٢٠٢٠)، **علم العلامات**، ترجمة محمد نبوي، الطبعة الأولى، طهران: دار آگه للنشر.

محمود حسين، خالد طالب (٢٠١٨)، **الظواهر الأسلوبية في شعر محمد حلمي الريشة** (دراسة)، الطبعة الأولى، إصدار: مؤسسة أنصار الضاد.

مكاريك، إيرينا ريما (٢٠١١)، "**موسوعة النظريات الأدبية المعاصرة**"، ترجمة مهران مهاجر ومحمد نبوي، طهران: دار آگه للنشر.

المغربي، حافظ (٢٠١٠)، **أشكال التناص وتحولات الخطاب الشعري المعاصر**، بيروت: منشورات العربي.

مقدادي، بهرام (١٩٩٩)، **معجم مصطلحات النقد الأدبي (من أفلاطون إلى العصر الحاضر)**، طهران: منشورات فكر روز.

Eco, Umberto (1976) **A Theory of Semiotics**. Bloomington, IN: Indian University Press/ London: Macmillan.

المجلات

أبو صالح، وائل (٢٠١١)، **الأديب محمد حلمي الريشة**، موسوعة أبحاث ودراسات في الأدب الفلسطيني الحديث، الجزء الرابع، الطبعة الأولى، مجمع القاسمي للغة العربية، أكاديمية القاسمي، باقة الغربية، ص ٢٨٧-٣١٢.

بربراري، شهيرة وسعاد طويل (٢٠٢٢)، **جماليات التناص القرآني في رواية "يا صاحبي السجن" لأيمن العتوم** (مقاربة سيميائية لعتبة العنوان)، تصف سنوية دراسات الأدب الإسلامي، السنة الأولى، العدد الثاني، ص ١٩-٤٤.

بيشگام، ناهيد، ويحيى معروف، ومجيد محمدي (٢٠٢١)، **سيميائية العنوان في شعر محمد حلمي الريشة**؛ دراسة حالة: "لا تعطيني تفاحة أخرى"، "رسالة إلى كليم الله"، و"أبابيل"، أدب عربي، السنة ١٣، العدد ٤، ص ١٧-٣٧.

حسيني، سيد يعقوب ومريم محمودي (٢٠٢٠)، **التناص بين آيات القرآن في النسخة الخطية "گلشن" لمحمد رحيم الكرماني**، فصلية بهارستان سخن، السنة السابعة عشرة، العدد ٤٩، ص ١١١-١٣٠.

شاهرخي، فرنگيس وإسماعيل صادقي ومحمد رضا سنكري (٢٠١٨)، **دراسة أنواع العلاقات التناصية بين أشعار أحمد عزيزي والقرآن الكريم**، فصلية كاوش نامه العلمية المحكمة، السنة التاسعة عشرة، ربيع ٢٠١٨، العدد ٣٦، ص ٢٠١-٢٢٩.

محققيان، زهراء (٢٠١٤)، **السيميائية الطبقية لآيات القرآن الكريم مع مراعاة العلاقات داخل النصية وبين النصية**، قرآن شناخت، السنة السابعة، العدد الأول، ص ٢٨-٤٦.

مختاري، قاسم وفريبا هادي فرد (٢٠١٥)، **التناص القرآني والروائي في شعر مهيار الديلمي**، فصلية "البحوث الأدبية القرآنية" العلمية المحكمة، السنة الثالثة، العدد الثاني، ص ٧-٢٧.

معروف، يحيى وناهيد بيشگام (٢٠٢٠)، **رموز المقاومة في شعر محمد حلمي الريشة**، مجلة بحوث نقد الأدب العربي، العدد ٢٠، ص ٢١٢-٢٣٣.

نامور مطلق، بهمن (٢٠٠٧)، "**التناص: دراسة علاقات نص مع نصوص أخرى**"، مجلة البحوث في العلوم الإنسانية، العدد ٥٦، صص ٨٣-٩٨.